قصة قصيرة

بقلم: برهان الخطيب

..ولكن ليس كالريح

تباطأ ايقاع الطبل، لعثر، تقطعت الضربات، توقف الطبال عن الضرب. واضمحل نشيج الربابة.. تلوت الفتاة فوطتها من حضن الرجل المتكئ على حافة السرير امام الموقد، وقالت غانمة الضحكة:

— سليمة.. ارقصي مكاني.

تشبث الرجل بالفوطة وهتف محتجا:

— على خير ؟

انتزعتها منه بقوة، واخرجت درهما من جيبها الصغير رمته على صدره منتهرة:

— هاك درهم التفريعة.. اتركني !

وتمسك باذيال ثوبها الزركش الطويل فسحبته بجرة سريعة، وانحنت لتخرج. ترك رجل يضطجع على السرير خرطوم النارجيلة الى جواره، وخطا على الحصير فمد يده وتناول من جيب دشداشة الرجل، الدرهم الذي قذفته عليه قبل قليل. قال له:

— حق الشاي..

والتفت الى الفتاة الاخرى، كان يلتصق بها رجل ترك عقاله ويشماغه الى جانبه على الحصير:

— سليمة، زيدي الشاي حبة هيل وخذي دورة..

وعاد الى مكانه على السرير قائلا كمن يعتذر:

— لا تهتموا للبنت رمزية.. تراها مجنونة، انا حالف براس والدي انه من غير بناتي لا ترقص واحدة تحت هذي الخيمة.. ولكن عجيبة الناس تحبها. دق يا اعور !..

فحصر الشاب الطويل الشعر حتى الكتفين طبلته بين ساقه وخاصرته ثم رفع يمناه وهوى بها على جلدة الطبلة. تبعه عازف الربابة مميلا راسه على صدره كالنائم، فيما وضعت سليمة يدها على اذنها وصاحت بصوت خرج كالتنهد:

حبيبي اسرع بالعدو من الريح ..

ظل الرجال الثلاثة الموزعين حول الموقد، مناجح النار، يحدقون في بعضهم لبرهة، ثم امتدت يد احدهم تحت الفوطة السوداء الملتفة حول راس صاحبته، وتغلغلت يد الاخر تحت طيات الثوب الطويل. هتف الرجل الثالث المتكئ على حافة السرير محتجا:

— يعني تروح فلوسنا بالشط ؟.. الحق رمزية، شف حالها مالها !

فاجابه رجل النارجيلة وهو يبعدها عن شفتيه:

— البنت مجنونة، لا نقدر نرغمها ولا نقدر تشتريها بفلوسك..

***

دخلت رمزية خيمتها تحكم شد الفوطة حول راسها. ثم عقدت ذراعيها على صدرها ووقفت محدقة نحو الارض بشرود، جاء صوت الطبل من بعيد يتردد كوجيب القلب الخائف، وغناء سليمة يتعالى كالاسقفانات..

حبيبي اسرع بالعدو من الريح ..

عدلت وضع الوسائد الصوف على البساط الجديد النظيف، نفضت حاشيته بيدها. وتناولت خرقة من تحته فمسحت بها مسند المسطبة الشاغلة نصف فسحة الخيمة، ومررتها على خشب الصندوق الكبير المرصع بالمسامير اللامعة، ثم باطأت اخيرا امام المرآة المغبشة المنتصبة عليه، فحدقت فيها بنظرة طويلة عميقة لكأنها تقرا فيها تاريخ السنين الغابرة.. ارجعت الخرقة الى مكانها. وانحنت تتناول اطراف ثوبها الزركش الا انها تفكرت لبرهة ثم اسقطته واقتعدت على البساط تحتضن راسها بيديها..

التفريعة بربع دينار ! ورؤوس فوق، ورؤوس تحت، والمصابيح تضوي، والليل نهار، ناس تجلس على الارض.. على المساطب.. واقفين.. محلقين حول محجر السطح، بنت على اليسار، وبنت على اليمين.. لكن العيون كانت كلها مشدودة عندها، والثوب الفضة الاحمر يلامع، يلهث، مثل قلوب العشاق. والطبال يدق ولا يلحق، وعزف الربابة ضاع وسط الحسرات والتصفيق.. والصوت طائر فوق سطوح الجيران والنخلات..

تدلل علي تدلل

بس لا يا ولفي ترحل

كلما تريد تدلل ..

وكان يتدلل وكل شيء يجري مثلما يريد، والفلوس انهار، السيارات لا تنقطع والناس لا تنعد لا في الليل ولا في النهار..

انتبهت على نداء يتعالى في الخارج، فنهضت وازاحت ستارة الجنفاص الثقيلة. تطلعت الى الخارج لحظات، ثم صاحت في الليل الرائق:

— يا حبيبه !.. رجع ضاري ؟

فجاءها صوت من خلف الدواب والخيم:

— يرجع الغراب ولا يرجع ضاري.

عاودت السؤال:

— جاء صيف !

— يجيء الربيع وبعده يجيء الصيف.

ومرة اخرى:

— عاد غصان ؟

— تعود الحمامة وبعدها تشوفين غصبان.

فتركت الستارة تنسدل. وتوجهت الى الفانوس المعلق في عمود الخيمة الاوسط، اخفضت فتيلته قليلا، فترسب نور موحش كئيب حول الظلال الداكنة..

دخل عليها مثل نسمة اخر الليل. هادئا، سريا، وضع حزامه وخنجره على الصندوق الكبير، ورص جسده متكئا على وسادة الصوف. ثم راح يتفرس وجهها متلاحق الانفاس، مرت فترة صمت قصيرة قبل ان يسالها:

— رمزية !.. خيرك ؟

التفتت نحوه، وعيناها تحدقان في الارض:

— محتصرة ..

فمد يده وحل عن راسها الفوطة السوداء فانهمر شعرها كشلال ليلي داكن. غرز اصابعه القوية في منابت شعرها:

— خيرا ؟

وكانت تبدو لاول مرة مستغرقة هكذا، كانما يخرسها الم داخلي عنيف، جرها نحوه:

— اذاك احد ؟

فاجابته كمن ترغم نفسها على الكلام:

— لا. ولكن، ارسلت صناري الى الولاية وما رجع لحد الان..

فقبضت اصابعه على شعرها بخشونة وادار وجهها اليه. لما رأت عينيه، اضافت:

— انت مجنون ؟.. عشرة مثل ضاري يروحون فدوة لعيونك.

— اذن ؟

فقالت وهي لما تزل على قنوطها، تكاد تنمحي ملامح وجهها في صدىء النور الواهن:

— ارسلته من الظهر، كان غير راضي.. عجيب ! حل الليل وما عاد، والدنيا صحو !

والتمعت عيناه السوداوتان تحت خصلات شعره المبعثر على جبهته. قال:

— ما كان يجب ارساله.

فهزت راسها كالاسفة:

— اردت طبخة لحم لمجيئك.

— يدري بمجيئي ؟

— تخمين.

— يعني ؟

فرمته بنظرة مؤنة وردت بلهجة مقلوبة:

— وراى اهسل يصانون الهيل واطلع لوب الاعراس.

— سألك عني ؟

— لا. فقط قال: الى متى هالحال..

— ...

— حاوبته انا، ما سكت: الحال حالي وهو ابن عمي وانا واياه للممات.

— ...

— .. لكن عندما راح للولاية، كان شيء ما في عيونه ما فهمته !

فحرر شعرها من قبضته قائلا:

— يعني لا يترك ! الا يخاف ان تكون نهايته مثل نهاية غيره ؟

— لا تهتم له.

وتاهت نظرتها في زخرفة البساط الملون:

— .. فقط لو تمر هذي الليلة بسلام.

فالتفت نحوها ثانيا عينيها بنظرة:

— رمزية، ما تخفين ..!

فهربت منه، تحدق في ظلمة الزوايا:

— لا شيء.

وظل يتفحصها طويلا ثم قال بهدوء:

— انهطي، اسقي الفرس.

— مستعجل ؟

— الحذر غلب القدر.

— تقف من حلقك.

بعد فترة قصيرة، سأل:

— حضرت التموين ؟

اجابت بلهجة زعل:

— كل شيء موجود تحت المسطبة..

— كيف الحال هنا ؟

بسرة تشي بعدم الرضى:

— بالسة حسنة.. لا احد يجيء بعد. اخذن يرقصن في التلفزيون كل يوم واغاني احسن.. لا احد بقي هنا غيرنا. تفريعتنا صارت بدرهم. كلهم نزلوا الى الولاية، اجروا بيوت هناك، اصبح رقص البنات على مبلط لا تحت خيمة..

كظم غيظه للحظات.. ثم نبر مهتاجا:

— وانت، اي شيء يمنع ؟

فرمته بنظرة مستهجنة. تمددت يدها، فجرته من شعره اليها بقوة، وعضته في خده. قبلته في اذنه والتمعت اسنانها تضيء بابتسامة ليل الخيمة الكامد. همست له:

— عنادك يمنع.

فالتوت شفتاه ازدراء:

— تريدين نصير مدنيين، نحبس انفسنا ببيوت طابوق ونمشي بشوارع رفيعة مثل حد السيف ! واسبع رمزية وهذا الهوا..

فنام وجهها بفكرة مرت مثل السحابة السوداء. تمهمت:

— ووضعك هذا ؟

سكت لفترة. ثم قال:

— غزال في فلاة.

— وجاء الذئب وجاء الثعلب !

— المهم حر مثل الريح..

فسكتت ايضا لبرهة، والحديث انتهى الى مرتفع تحيطه هوة سحيقة من كل جانب حيث لا يمكن التراجع، وكل كلمة يمكن ان تنطقها الان تكفي، اذا لم توضع في محلها المناسب، الى سقوطهم سوية ودمارهم على قاع مجهول. ورغم ذلك قالت متسائلة كانما تحسم امرا بضربة سيف:

— وتعتقد للمطارد حرية ؟

فمرد باصابعه الضخمة لحيته الوحشية السوداء. واجاب:

— ما دام قد اختار هذا الوضع فهو حر.

وكانت تطأ بقدميها ارضا مجهولة. اضافت:

— ولكن هذي ما حرية.

اقتب مؤكدا:

— حرية. وهو لا يفقدها الا حين يستسلم لطارديه.

— صحيح انت اخترت مصيرك هذا بالفعل !

فابتسم بأسى:

— هذا السؤال يشبه سؤال البيضة من الدجاجة او الدجاجة من البيضة.

— لكنك مهدد، لكننا..

— عندي هذا افضل من قبول الفساد

— ولذلك اجرمت، هذا ما فساد !

— قتل الافعى خير.

— وما ذنب الافعى !

— ذنبها انها مخلوقة بهذي الصورة

— تعترض اذن على ارادة الخالق !

— اعترض على ما هو سيء.

والتفتت رمزية الى جانب كمن لا تفهم، وتناهى ضرب الطبل ضعيفا من هناك، وصوت سليمة يتردد واهنا في الخلاء كخاطر لا يبرح الذاكرة:

حبيبي اسرع بالعدو من الريح ..

قال لها:

— سقيت الفرس ؟

— خليها تتعلم الصبر مثلما تعلمته انا.

فقبض على شعرها وطرحها الى جانبه على البساط، فيما تلالا النور بين جفنيها للحظة..

انحرف الخيالة عن مضرب الخيام حين لاحت انوار «اللوكس» منبعثة اعلى عمود الخيمة الكبيرة. قاموا بدورة كبيرة حوله. وعند الاقتراب من الدخل اتجهوا بعيدا عن الخيام حيث اخفتهم ظلمة الخلاء. ولكز احدهم فرسه عائدا الى الخلف، فيما توقف ثلاثة اخرون قرب سيارة «بيكاب» مغبشة بنور واهن يتسرب من فانوس نفطي صغير معلق بعمود خيمة قريبة. انتصب اوسطهم على الركاب فحرك جواده قائمتيه الاماميين وهز راسه نحو الارض تهز نخر بقوة. فخرج من الخيمة القريبة صبي صغير يمسح مخاطه بكم دشداشته القصيرة وما ان تبين القادم جيدا حتى رفع يده الى راسه وادى له ما يشبه التحية العسكرية ثم عاد واختفى كالمطارد داخل الخيمة. رفع الخيال عصاه وابتدا يعد الخيم الموزعة حول ساحة صغيرة تنتشر فيها برك المياه يتوسطها عدد قليل من الدواب. اهتز القمر على سطح الماء بهدوء اذ مرت فتاة، انحنت تحت حبل غسيل وعبرت الى الخيمة الكبيرة حيث تعالى منها صوت نسوي يغني ممتزجا بضرب الطبل وعزف ربابة يصدر متقطعا كالنشيج.

ترجل الخيالة الثلاثة فاستقبلهم بضعة اطفال عند المدخل، جاءت نسوة من لا مكان فحملت كل واحدة منهن طفلها واختفت به في الظلام المتشابك اسفل الخيمات الصغيرة المتكاثفة حول الساحة. برزت شابات نحيفات من الداخل فتوقفن قرب الاوتاد يلففن بانصاف بطانيات كالحة وانسجة صوفية ملونة. هفهفت الريح اذيال اثوابهن المزركشة اللامعة فانبعجت كأن انفاسها تلاحق هلعا. وظلت الخيول تتحرك عندما توقف الخيالة الثلاثة المترجلين امام الخيمة الكبيرة، وكانوا قد حرروا محافظ مسدساتهم من اغطيتها، والقى اوسطهم نظرة خلال شق في الستارة ثم ازاحها بيده بهدوء وتطلع الى الداخل.. بدا كان الحاضرين لم يفاجأوا بوجوههم، وواصلت المغنية اغنيتها بصوت عال هذه المرة، وهي تنتهي من ترجيف كتفيها:

حبيبي إسرع من العدو بالريح ..

★

هبت رمزية من تحت صدره، واستوت على بساط الصوف:

— اسمع !

— ...

— .. سليمة غيرت معاني الاغنية !

.. خرجت حافية وراحت تتسلل في الظلام المتجمد حول الخيام والقمر يسطع عاليا، باهرا كالحريق، يضوي كل شيء. ومرت الريح تجري كانها تهرب الى لا مكان فارتعشت الاعشاب البرية المنتشرة في الحقول كالقنافذ.

.. عندما عادت اليه وجدته متمنطقا بحزامه، فارتمت عليه ومدت يدها متوسلة نحو خنجره:

— اتركه ..

والتمعت عيناه كالنصل العاري. وقال:

— ها .. جاء الوعد !

فتشبثت به غرقى:

— ولا يهمك، حساب ضاري عندي .. بس اتركه !

— لا يا رمزية ! النعجة تلوي رقبتها لا ابا.

— فدوة لعينيك لا تسوي من الطين دهلة.

— يعني ابدل رمزية والشمس بظلمة حجر !

— رمزية تبقى رمزية وان كنت بحجرة سجن.

— تتبدلين، والدهر غيّر حتى الصخر.

— ثلاث سنين، سألنا بالولاية.. حتى الف، والشكل لا له اثر على المدثر.

— لا يا رمزية، انا حر، لا حيوان ولا شجر.

— فدوة لعينيك اذن، اسمع كلامي ولا تغير.. بعدما اخرج انا، احسب من الواحد الى خمسين او اكثر. وبعدها تاخذ الفرس وتطلع مغرب ولا ترجع الا بعد ما يعود العشب اخضر.. توعدني ؟ وحاصرته عيناها فلم يطل التفرس فيهما، ودمدم مضطرا:

— اوعد يا رمزية.

واخترق اذنه طنين عميق بقبلة كادت تمتصه بها. ولم يستعد انتباهه الا وهو وحيدا وسط فراغ الخيمة الصغير يستولي عليه نور موحش ثقيل. ومن خلال شق ضيق كان الليل يبدو شاحبا تحت ضوء القمر الساطع الشريد، والاشياء تتداخل بين انسجة الظلال كانها تتخفى من عيون خطر داهم يحدق في كل الاتجاهات.

تعالت ثمة اصوات بعيدة، ونبحت كلاب، وجرى رجال امامه الى مكان ما.. استل خنجره من غمده المفضض ثم تراجع الى مؤخرة الخيمة، فانفذ نصله خلال نسيجها ثم سحبه الى الاسفل ومزقه حتى الارض، مد راسه حذرا الى الخارج فاستقبلته ريح باردة ورائحة فرسه الواقفة في الجوار تنفث من منخريها الواسعين انفاسا رمادية متقطعة.

.. تراجعت الاصوات خلفه، وانطلق هو كالسهم نحو المهبط الذي تغرب منه الشمس كل يوم،

وكان

هناك

بعيدا عنه

امام الافق

جواد اخر، يجري بفارسه حثيثا الى المشرق، يجر خلفه العديد من المطاردين. ولم يكد غبش المسافات يموههم عنه، حتى انهمر، هناك فجأة، دوي الاطلاقات يمرق صفو الفضاء.. تباطأت الخيول شيئا فشيئا، وراح الغبار يهمد خلفهم كالرماد.

اقترب المطاردون من الفارس المطروح على الارض، وكان جواده يدربك عائدا كالمخذول نحو الخيام. ولما احاطوا به بخيولهم، تمتم احدهم فاغرا فاه:

— رمزية !..

ليس بعيدا عنهم، زنخر حصان ما في الصمت، التفتوا ناحيته، وجدوا فرسا قادمة بالهارب غضبان، مدلي الراس على صدره..

برهان الخطيب

موسكو

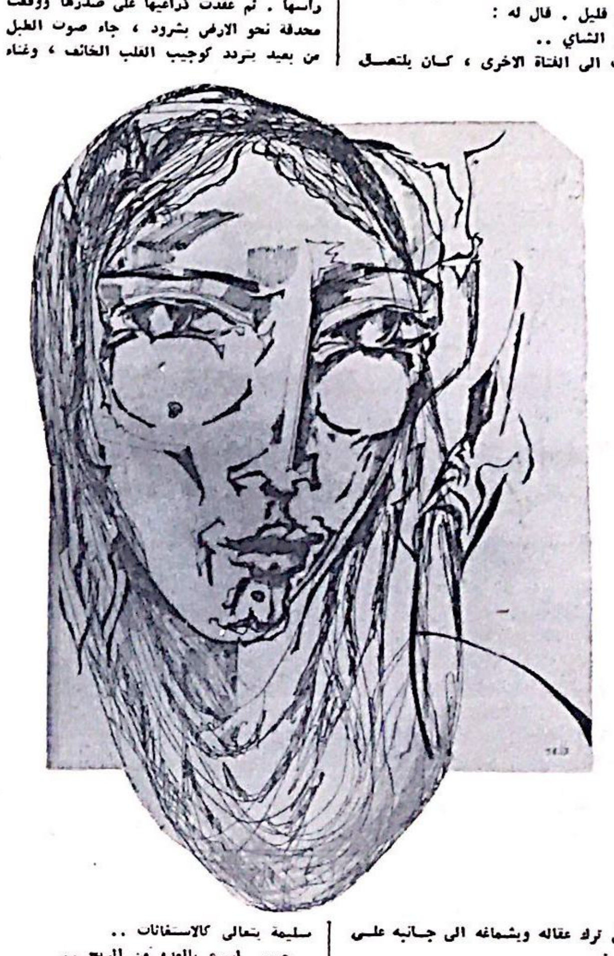

● شعر : ممدوح عدوان ●

الى الشهيد «غسان كنفاني»

حين اتاني النبا الدامي في عجله
لم اسال نفسي «من قتله ؟»
فالاسئلة عن القاتل ماتت
منذ اختنق الاخوة تحت رداء من صمت في ايلول
وتعلق عنقود نجوم بمشانق سوداء على النيل
منذ نضوب الماء من المدن العربيه
ورجال كالاشجار ابتلعوا في الرمل المتحرك
في صحراء الساسه
غرقوا شبرا .. شبرا . رجلا .. رجلا
ما مدت لهم يد
لم يتحرك حولهم غير كلام كحبال يمتد
يتحول، بعد الخنق، رثاء واكاليل
وحصارا من جوقات وطبل
يتحول كابوسا ورياحا تشتد
وعلى مفترقات دروب الثورة، بين حقول الفلاحين
في ابواب الحارات وبين صفوف الشعب المعزول
يترصدنا القتله
ولذا لم اسال نفسي يوما :
«من منهم سيكون القاتل» ؟
بل كنت اقول :
«من منا سيكون المقتول» ؟

* * *

منذ اتانا بسلالات الحزن المكبوت
كنت ارى آثار خطاه دماء
كنت ارى دمه يتصبب فوق شوارع بيروت
وهي تموت
كنت اراه يرفع رجلا لا تبرح هذي الارض
الجرداء
محتقنا بالغضب الموقوت
اعرفه وطنا يبحث عن رجل
رجلا يبحث عن وطن
ميتا يبحث عن قبر
مدنا تتهاوى تحت براكين الفقراء
واراه نبيا يرفض رحلات الاسراء .

* * *

كنت سالت الوطن المسكين
وهو يعد فجائعه في صمت
ويحولها مسبحة بلهاء
«يا وطني ماذا تفعل في حلقك هذي السكين ؟
ماذا تفعل ؟
بلعها فتمزق من هذي الامعاء الجوفاء ؟
ام ترفعها بالصيحات المرتجلة ؟»
لم اسمع الا همهمة خرساء
والارض تئن وترمقني خجله
وانا احسبها وجله

* * *

هذا زمن يتفجر فيه الرعد من الارض
وتهطل من غيم الثورة فيه الاشلاء
يصطك الجائع بالجوع، فتبرق رايات الشهداء
وتضاء الارض، وبتفضح السفلة
هذا زمن صار الفقر بذارا فيه،
مواسمه قهر ودماء
هذا زمن الخيبات المتصلة
والجثث المتناثرة من المدن الى الصحراء
فيه يصير الكفن دماء
ويصير القبر هواء
ويصير عزاء الناس تالق اسم قتيل
تلك علامات ظهور الفقراء
ياتون الارض المنهوبه
وسلاح الاتي ليس سوى دمه
وبه في الساحات يصول
ويجيء القتل، فلا يسال احد عن اسم القاتل
بل يسال عن قبر المقتول

* * *

حين يغيب الوجه وتحسب صاحبه مات
يتكسر غصن في غابات مشتعله
تصرخ اشلاء القتلى تطلب ماء او ثارا
فتجمد بين حلوق النداين الاصوات
ويجيء الصوت الاخر :
«ما دام الفقر هواء تتنفسه لن ينقطع مجيء
الفقراء
ما دام الفقر لدينا مرضا ينقله الاباء الى الابناء
لن تنهينا الايام السوداء المحتقنه
فلدى الفقراء رصاصات بيضاء للايام السوداء
تصنع يوما اطول من الف سنه
ولديهم احقاد مختزنه
تتفجر منها الارض برعد آخر
ينطق متهما قدام الجمع المذهول
يعلن اسماء القتله
وتعددها معه اشلاء المقتول» .